مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٣، العدد ٤، شتاء ١٤٣٩هـ
صفحة ٥٨٧ – ٦٠٧

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
jal-lq.ut.ac.ir

بنية الشخصية في رواية الزيني بركات لجمال الغيطاني

عليرضا كاهه*

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة ولايت، إيرانشهر

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/٩/٢٦؛ تاريخ القبول: ٢٠١٨/١/٧)

الملخّص

إن تحليل بنية الرواية أحد السبل الناجعة التي تمكّن الباحث من إدراك مظاهر تشكّل بنية النص، والنظرة البنيوية للشخصية الروائية تدرس صيغ تقديمها في النص الروائي لفهم الأدوار والوظائف التي تقوم بها. يعتبر جمال الغيطاني من أبرز الروائيين المنتمين لتيار استلهام التراث في إنتاجه الأدبي، والاتّجاه الذي تبنّاه ظهر في كيفية توظيف الشخصيات في روايته «الزيني بركات» (١٩٧٤م). تضمّ الرواية شخصيات رئيسية وفرعية متفاوتة الأنماط، بعضها متخيلة، وبعضها ذات مصداقية في تاريخ مصر المملوكية، أضاف إليها الكاتب من الخيال ما ينطقها، كي يجعل منها شخصيات نامية في الرواية. اعتمد الكاتب في رسم الشخصيات والوظائف المسندة إليها على الراوي العليم الذي يقدّمها عبر صيغ متنوّعة أهمها: الخطاب غير المباشر الحر، والحوار، والراوي الخارجي، إلى جانب الاستفادة من المعلومات الواردة في كتاب «بدائع الزهور في عجائب الدهور» لابن إياس. وقد سعى الراوي بشكل لافت إلى بلورة الملامح الداخلية للشخصيات ما أدى إلى حجب الأوصاف الخارجية المحددة عنها. تعتمد المقالة على المنهج البنيوي لتحليل بنية الشخصية في هذه الرواية من خلال تسليط الضوء على أشكال تقديم الشخصيات الرئيسية والفرعية فيها إلى جانب تبيين وظائف هذه الشخصيات.

الكلمات الرئيسة

جمال الغيطاني، الزيني بركات، البنية، تقديم الشخصية، وظيفة الشخصية.

* الكاتب المسؤول
Email: a.kahe@velayat.ac.ir

مقدمة

تحتلّ الشخصية[١] مركزاً مرموقاً في الرواية؛ لأنها تمثّل مع الحدث عمود الحكاية الفقري، (مجموعة من المؤلفين، ٢٠١٠: ٢٧٠) أي تمتد منها وإليها جميع العناصر الفنيه في الرواية، ويتمحور حولها المضمون الذي يريد الكاتب نقله إلى القارئ. قيل في تعريفها بأنّها: «كائن موهوب بصفات بشرية وملتزمة بأحداث بشرية» (برنس، ٢٠٠٣: ٤٢). وقد اختلفت النظرة إلى الشخصية الروائية باختلاف مذاهب كتابة القصص، ففي النظريات السيكولوجية تصير الشخصية كائناً إنسانياً، وفي المنظور الاجتماعي تعبّر عن واقع طبقي، ويعكس وعياً إيدلوجياً، ولكن التحليل البنيوي لا يتعامل مع الشخصية بوصفها شخصاً، وإنما بوصفها فاعلاً ينجز دوراً أو وظيفة في الحكاية. (بوعزة، ٢٠١٠: ٣٩) ذلك أن ما هو أساسي في النص الحكائي وفق نظرة البنائية المعاصرة للشخصية «هو الأدوار التي تقوم بها الشخصيات، فعن هذه الأدوار ينشأ المعنى الكلي للنص. وهذا هو سبب تحول الشكلانيين، والبنائيين معاً إلى الاهتمام بالشخصية الحكائية من حيث الأعمال التي تقوم بها أكثر من الاهتمام بصفتها ومظاهرها الخارجية» (لحمداني، ١٩٩١: ٥٢).

ووفق المنهج البنيوي يتمّ التمييز بين الشخصيات بحسب تقديم المعلومات[٢] عن الشخصيات وكيفية هذا التقديم، ومن هذا المنطلق لجأ الباحثون إلى وضع أشكال في تقديم الشخصية وحدّدوها في أربع صيغ: «١. بواسطة نفسها. ٢. بواسطة شخصية أخرى. ٣. بواسطة راوٍ يكون موضعه خارج القصة (الراوي الخارجي[٣]). ٤. بواسطة الشخصية نفسها والشخصيات الأخرى والراوي» (أحمد، ٢٠٠٥: ٤٤). وتختلف أشكال التقديم من فترة إلى أخرى وترتبط باختيارات الكاتب الفنية والجمالية؛ لأن من الكتّاب من يسهب في تحديد ملامح الشخصيات مثلما نجد في الرواية الواقعية، وهناك من يعمد إلى الإيجاز، ويترك شخصياته بدون ملامح وأوصاف. ومن الروائيين من يتعمّد تضليل القارئ بوضع شخصياته في أوضاع غامضة ومتناقضة. (بوعزة، ٢٠١٠: ٤٣)

---

1. Character
2. Introducing the information
3. Extra diegetic Narrator

لا تتساوى الشخصيات في الرواية من حيث الأدوار والوظائف[١]، فبعضها تستأثر باهتمام السارد، وتكون أكثر تميزاً من الشخصيات الأخرى ويمنحها السارد حضوراً طاغياً، بينما بعضها لا تحظى باهتمام السارد وتقوم بأدوار محدودة في سياق بعض الأحداث أو المشاهد. ومن هذا المنطلق قام النقاد بتقسيم الشخصية من حيث الدور الذي تقوم به في السرد إلى نوعين: رئيسية أو محورية، والثانوية أي مكتفية بوظيفة مرحلية. (بحراوي، ١٩٩٠: ٢١٥) وقد توجد بين الشخصيات الثانوية، شخصيات «لا دور لها في الواقع، ولا وظيفة، ومع ذلك فهي ضرورية؛ لأن الرواية، بما فيها من حوادث، وعلاقات، وزمان، ومكان، لا تتمّ، ولا تكتمل لها الصفة، في معزل عن هاتيك الشخوص» (خليل، ٢٠١٠: ١٩٨-١٩٩) ولذلك يمكن تسمية هذه الشخصيات «الشخصيات الثانوية الفرعية».

يعتبر الروائي المصري جمال الغيطاني[٢] من أبرز الروائيين الذين اتّجهوا نحو توظيف التراث في أعمالهم، وروايته «الزيني بركات» (١٩٧٤) استلهمت التراث لتفسير الواقع الحاضر، أي إن دور التاريخ في الرواية اقتصر على تزويد السرد بالشخصيات والأحداث الماضية، ولكنها خرجت من إطارها التاريخي الحقيقي، وأصبحت متعدّدة الدلالة. وبناءً على هذا وعلى الرغم من أن رائحة التاريخ تفوح منها على مستوى بعض الأحداث، والتشخيص، واللغة، والمكان، فإن رواية «الزيني بركات» رواية غير تاريخية. (يقطين، ٢٠٠٥: ٢٦٦)

تتّخذ الشخصية في رواية الزيني بركات مكاناً متميزاً بين سائر عناصرها، إذ توجد في الرواية شخصيات رئيسية وفرعية متنوعة تحدو بالأحداث إلى الأمام، ويمكننا تقسيمها قسمين: التاريخية والمتخيلة. وقد صرّح فيصل درّاج بهذا الصدد قائلاً: «جمع الغيطاني، وكما فعل والترسكوت، في زمن مضى، بين شخصيات تاريخية حقيقية وشخصيات متخيلة. وكان فيما يفعل، يمنح الشخصيات التاريخية أبعاداً تخييلية» (درّاج، ٢٠٠٢: ٢٣٤).

---

1. Function

٢. جمال أحمد الغيطاني: ولد عام ١٩٤٥ في قرية «جهينة» بمحافظة سوهاج بالصعيد. (الصمادي، ١٩٩٢: ٥) صدرت مجموعته القصصية الأولى «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» سنة ١٩٦٩. من مجموعاته القصصية الأخري: «أرض- أرض» (١٩٧٢)، «الحصار من ثلاث جهات» (١٩٧٥)، «حكايات الغريب» (١٩٧٥)، «ذكر ما جرى» (١٩٧٨) إلخ. ومن أعماله الروائية: «الزويل» (١٩٧٤)، «الزيني بركات» (١٩٧٤)، «وقائع حارة الزعفراني» (١٩٧٦)، «الرفاعي» (١٩٧٨)، «شَطح المدينة» (١٩٩٠) إلخ.

أسئلة البحث:

كيف يتم تقديم الشخصيات الرئيسية والفرعية في هذه الرواية وما هي وظائفها؟

فرضية البحث:

اعتمد الكاتب في تقديم الشخصيات على الراوي العليم الذي يقدّمها عبر صيغ متنوّعة أهمها: الخطاب غير المباشر الحر، والحوار، والراوي الخارجي، إلى جانب الاستفادة من كتاب «بدائع الزهور» لابن إياس. قد حدّد الراوي لكلٍّ من الشخصيات وظائف محددة، يدرك القارئ من خلال تحليلها محتوى النص الروائي.

منهج البحث:

تتبنّى المقالة المنهج البنيوي وعبر الاستفادة من آراء المنظّرين في هذا المجال تقوم باستخراج عنصر الشخصية ثم تحليلها تحليلاً بنيوياً.

خلفية البحث:

حظيت رواية الزيني بركات منذ صدورها باهتمام نقدي واسع، لكن غالبية هذه الدراسات قد سلطّت الضوء على القضايا المتعلّقة باستلهامها التراث وتوظيفها القناع التاريخي، ولم تقم بتحليل عنصر الشخصية فيها وفق المنهج البنيوي. وفيما يلي أهم هذه الدراسات:

يرجع مراد مبروك عبد الرحمن في كتاب «العناصر التراثية في الرواية العربية في مصر- دراسة نقدية (١٩١٤-١٩٨٦)» (١٩٩١)، إلى دراسة أنماط التراث في بعض الروايات العربية من بينها رواية الزيني بركات التي يدخلها الكاتب في خانة الشكل التاريخي ويستخرج اللغة التراثية وأبعاد الشخصية التاريخية فيها. وحاول مأمون عبدالقادر الصمادي في كتاب «جمال الغيطاني والتراث» (١٩٩٢) الكشف عن جوانب التأثير التراثي في الأعمال الروائية لجمال الغيطاني، ودرس الشخصيات التراثية، وأبعاد الزمان والمكان التراثي ودور اللغة التراثية في بعض روايات الغيطاني. وضمن عنوان «قناع التاريخ والمعارضة النصية في الزيني بركات» في كتاب «الرواية الجديدة في مصر (دراسة في التشكيل والإيديولوجيا)» (١٩٩٣) تحدّث محمد بدوي عن استطاعة جمال الغيطاني تحقيق إزدواجية دلالة الرواية بين مصر المملوكية والزمن الحاضر. وفي كتاب «تحليل الخطاب الروائي» (ط٤، ٢٠٠٥) قام سعيد يقطين بدراسة الخطاب الروائي لرواية الزيني بركات، ووقف على ثلاثة مكونات هي: الزمن، والصيغة، والرؤية السردية. وأخيراً

تناولت نفلة حسن أحمد في الفصل الثاني من كتابها «التحليل السيميائي للفن الروائي» (٢٠١٢) انتماء شخصيات رواية الزيني بركات إلى الطبقات الاجتماعية، ودلالة أسماء بعضها.

ملاحظات عامة حول الرواية

تبدأ وقائع الرواية بالقبض على علي بن أبي الجود محتسب القاهرة زمن حكم المماليك، بتهمة سرقة أموال الناس، وتعيين الزيني بركات محتسباً جديداً للقاهرة بأمر من السلطان قانصوه الغوري. في البداية يرفض الزيني بركات هذا المنصب، لكن أبا السعود يقنعه لتولّي هذه الوظيفة. يغيظ هذا التعيين زكريا بن راضي، المسؤول في حفظ أمن السلطة، إذ يحسب الزيني بركات منافساً له في وظيفته. لكن بعد مضيّ زمن قصير وللاحتفاظ بالسلطة يعينه الزيني بركات نائباً لنفسه ويتجاوز المبادئ التي كان يتظاهرَ بها. في نهاية الرواية تُهزم السلطة المملوكية في معركة «مرج دابق» من العثمانيين، ويدخل العثمانيون البلاد، وبعد الاختفاء لفترة وجيزة، يظهر الزيني بركات ممتطياً فرساً؛ ويعلن المنادي عن تعيينه متولياً جديداً لحسبة القاهرة، ويقرأ أمراً صادراً منه، يؤكد فيه أن العملة العثمانية الجديدة حلّت محل العملة المملوكية القديمة.

يحيل عنوان الرواية على حقبة زمنية تاريخية هي فترة حكم المماليك بمصر، وتقع أحداثها في القاهرة المملوكية. من هذا المنطلق من المفيد تبيين أسباب لجوء الغيطاني إلى كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لكتابة روايته. يقول الروائي بهذا الصدد: «هناك وجوه اتفاق بين حياتي وواقعي، وحياة ابن إياس وواقعه... قد شهد ابن إياس هزيمة المماليك أمام العثمانيين، وشهدت هزيمة بلادي أمام الإسرائيليين» (ندوة مشكلة الإبداع عند جيل الستينيات والسبعينيات، ١٩٨٢: ٢١٣). ويقدم وجه شبه آخر بين الوضعين التاريخيين ويضيف قائلاً: «في فترة الستينيات كانت مشكلة الديمقراطية بالغة الحدة، حتى إن نجيب محفوظ نفسه استخدم الرمز. كنت أشعر بوطأة القهر البوليسي، وبحصاره للمثقفين وأفراد الشعب عموماً. وكنت في رعب من أجهزة الأمن» (ندوة مشكلة الإبداع عند جيل الستينيات والسبعينيات، ١٩٨٢: ٢١٣).

فيبدو أن معطيات الواقع المصري قبل وبعد هزيمة ١٩٦٧، أشبهت زمن القاهرة في حكم المماليك، ومن ثمة حقبة حكم المماليك كانت تصلح للمقارنة، والإيماء؛ لأن «الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، فإن لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية والقابلة للتجدد على امتداد التاريخ في صيغ وأشكال أخرى» (الجابري، ٢٠١١: ٣). نتيجة هذا التشابه أقام الغيطاني

موازاة بين نص ابن إياس التاريخي ونصه الروائي، وهذا التوازي يكشف التشابه القائم بين هاتين المرحلتين التاريخيتين. (مبروك عبد الرحمن، ١٩٩١: ١٨٢) ومعنى هذا أن توظيف الكاتب للقناع التاريخي، كان أسلوباً للتعبير عن رؤية تتصل بهموم الواقع المعاصر في مصر.

أشكال اختيار الأسماء في الرواية

إن التمعّن في أشكال اختيار أسماء الشخصيات في هذه الرواية قد يمكّن الدارس من تحديد ماهية بعضها؛ فهي كما يلي: ١. عرض الإسم منفرداً (مبروك، سماح، منصور، شعبان، سلامش، طومانباي، طغلق، طشتمر، بشتاك و...). ٢. إضافة مركّب جديد إلى الاسم، والمركّبات المضافة هي: الصفة (الزيني بركات، سعيد الجهيني، قانصوه الغوري) والمضاف إليه (زكريا بن راضي، علي بن أبي الجود، عمرو بن العدوى) والمهنة (شهاب الحلبي ناظر الديوان، القاضي عبد البر، الصفدي بائع العطور، محمود اللبان، برهان الدين تاجر الفول، عبد الحميد رئيس طائفة السقائين في القاهرة، أحمد بن عمر خادم مسجد سيدي سويدان، إبراهيم بن السكر والليمون كبير الشعراء والمغنين في مصر) واللقب الاجتماعي (الشيخ أبو السعود، الشيخ ريحان البيروني، الشيخ القصبي، الشيخ رضوان).

من خلال التدقيق في منظومة الأسماء يجد القارئ أن الأسماء التراثية احتلت الحيز الأكبر من فضاء منظومة الأسماء، وهذا يوحي بمدى انتماء جمال الغيطاني إلى التراث وسعيه لحفز القارئ إلى التراث. أيضاً يبدو أن غالبية الأسماء تعود إلى الشخصيات الذكورية، بينما الأسماء النسوية قليلة جداً، قياساً إلى أسماء الذكور (يجب التنويه بأن بعض الشخصيات المذكورة لا دور رئيسي لها في أحداث الرواية، لكنها ضرورية لإتمام أجزاء من بعض المشاهد السردية).

أشكال تقديم الشخصيات الرئيسية ووظائفها

ترتكز الرواية على شخصية «الزيني بركات» باعتبارها شخصية مركزية تدور حولها الأحداث المتشابكة التي تصوغ بنية الرواية. إن الزيني بركات من الأشخاص الذين كان لهم وجود حقيقي في حقبة من حقبات تاريخ العصر المملوكي وفق ما قدّمه المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس (٨٥٢-٩٣٠هـ) في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور». يقول عمر فروخ عن هذا المؤرخ: «ابن إياس مؤرخ في الدرجة الأولى أراد أن يكتب لمصر تاريخاً منذ أقدم

الأزمنة (منذ الخليقة، بادئاً بآدم) إلى آخر أيامه هو. ومكانته في التاريخ أنه توسّع في تاريخ عصره (أواخر أيام المماليك وأوائل أيام العثمانيين) ثم تناول معظم مظاهر البيئة التي عاش فيه» (فروخ، ١٩٨٩: ٩٣٥). إنه لجدير بالذكر أن هذا المؤرخ شهد تدهور أوضاع نظام المماليك وسقوطه وسجّل تلك الأحداث، معتمداً على نمط الحوليات، أي سجل الأحداث سنة بسنة، وشهراً بشهر، ويوماً بيوم، في شكل تقارير شاملة.

أما بالنسبة لهذا الشخص (الزيني بركات) فقد قال ابن إياس عنه في كتابه: «فيه (شوال سنة ٩٠٨هـ) أخلع (السلطان) على الحاج بركات بن موسى وكان أبوه موسى من العرب وأمه تسمى عنقا ثم بقى ركاب الملك المؤيد احمد بن الأشرف اينال فاستقر برددار السلطان ومتحدث على جهات (١٤٠ آ) وغير ذلك من أمور المملكة عوضا عن عليّ بن أبي الجود وهذا أول ظهور بركات بن موسى واشتهاره في الرياسة فعظم أمره جدا وصار معدوداً من أعيان رؤساء مصر وتزايدت عظمته من بعد ذلك» (ابن إياس الحنفي، ١٩٣١: ٥٠). وذكر هذا المؤرخ في أحداث يوم حادي عشر من شعبان سنة ٩١٠هـ إقرار الزيني بركات في وظيفة حسبة القاهرة، حيث «فيه أخلع على الزيني بركات بن موسى وقرّره في حسبة القاهرة، وقد عدّ من جملة أعيان الرؤساء بمصر وقد عظم أمره جداً» (ابن إياس الحنفي، ١٩٣١: ٧٥). وقد ظلّ محتسباً للقاهرة زمناً طويلاً في عهد السلطان الغوري، وبعده في عهد العثمانيين، كما هو الحال في الرواية.

ولو قارنّا بين ما ذكره ابن إياس في كتابه عن هذا الشخص وما ورد عنه في النص الروائي، لاتّضح الفرق الكبير بين الشخصية التاريخية في كتاب «بدائع الزهور» والشخصية التاريخية في الرواية؛ لأن رسم هذه الشخصية الروائية يكون واحداً من الأمور التي أبدع فيها الغيطاني، إذ تظل طيلة الرواية شخصية معقدة وغامضة، يصلنا مضمون أقوالها، وملامحها الخارجية عبر حكي الآخرين، الذي ينقله الراوي العليم[1] عن طريق «الرؤية من الخلف». «والكاتب في هذه الزاوية يسيطر على كل الأمور والقضايا التي تجري في الرواية بل يعلم كلما يجري في مفكرة الشخصيات ويوضحها وأحياناً يتكلم بدلاً عنهم حتى يفضي عمّا يدور في بالهم ويخطر بمخيلتهم» (طالب زاده شوشتري، ١٤٣٤: ٥٦)، وهذا ما يسمّيه جيرار جنيت «التبئير الصفر[2]» (جنيت، ١٩٩٧: ٢٠١).

1. Omniscient Narrator
2. Zero Focalization

فمن خلال المرسوم الذي أصدره السلطان قانصوه نقرأ: «يتولى بركات بن موسى، حسبة القاهرة، لما تبين لنا بعد ما قدمناه، ما فيه من فضل وعفة، أمانة وعلو همة، وقوة وصرامة، ووفور هيبة، وعدم محاباة أهل الدنيا وأرباب الجاه، ومراعاة الدين، كما أنه لا يفرق في الحق بين الرفيع والحقير» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٣٠). وينبغي لمن يقوم بمنصب الحسبة أن يتّصف بمثل السمات التي وردت في المرسوم، ومن هذا المنطلق استطاع الزيني بركات بمهارة وذكاء التحلّي بهذه الصفات أمام السلطان. ولتبيين هذا الأمر ينقل الراوي تقريراً مرتبطاً بأقوال الزيني بركات في تلك الجلسة حين قال: «الحسبة يا مولاي ولاية يؤتمن صاحبها على أحوال العباد، وحاشا لله أن أجد في نفسي القدرة على هذا، أنا عبد فقير لا أطيق وصايتي على إنسان، أتمنى انقضاء عمري في أمن وسلام، بعيداً عن أمور الحكم والحكام، ما أريده رقدة آمنة، لا يقلقني فيها سب إنسان، أو سخط مظلوم غفلت عنه ولم أنصفه من ظالمه» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٤١). إن الملفت للنظر في هذا التقرير حذق الزيني بركات في اختيار المفردات التي توحي بحسن أخلاقه، وتساعده في نيل ثقة السلطان قانصوه.

وقد استخدم الراوي أشكالاً متنوعة أخرى لتقديم هذه الشخصية، إذ بما أن من وظائف المحتسب «النظر في المكاييل والموازين، والتحذير من الغش في طعام أو شراب، وأن يتعرف الأسعار، وأن يستعلم ويستقصي الأخبار...» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٣٠) فيقوم الزيني بركات بتسعير البضائع، وإلغاء الضرائب والقضاء على الاحتكار، فكان أثر ذلك أن نال ثقة الناس. ويقدّم الرحالة البندقي «فياسكونتي جانتي» الزائر للقاهرة عن طريق «الرؤية من الخارج» أو «التبئير الخارجي[1]» (جنيت، ١٩٩٧: ٢٠١-٢٠٢) هذا الجانب من تصرفات الزيني بركات قائلاً: «رأيت الزيني ينزل بنفسه، يناقش باعة الحلوى، والأجبان، والبيض، يقف طويلاً مع الفلاحات بائعات الدجاج والأوز والأرانب والبط، يسعر الأصناف بنفسه، يجرس المخالفين في المدينة، أعرف رضاء الناس عنه» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٠).

وفي تقديم الشخصية الروائية إلى القارئ قد يلجأ الكاتب إلى «نفسها مباشرة وذلك باستعمال ضمير المتكلم» (بحراوي، ١٩٩٠: ٢٣٢)، هذا ما فعله الروائي في حادث تدخّل الزيني بركات لرفع الظلم عن شخص ما، إذ يقدّم الزيني بركات نفسه (وفق صوت الراوي العليم) قائلاً: «لن تحدث فاحشة في زماني أبداً، أنا ما أخشى إلا هو، أشار بإصبعه إلى السماء»

1. External Focalization

(الغيطاني، ١٩٩٤: ٨٣). مصدر المعلومات في هذا المقطع عن الشخصية نفسها، ويتعرّف القارئ على صوتها من خلال نفسها الذي يدّعي بعدم سماحه لحدوث الأفعال القبيحة في فترة توليه وظيفة الحسبة.

يعد الحوار[١] عنصراً هاماً في الرواية؛ لأنه يتطابق مع عقلية الشخصيات ويبلور أفكارها وسماتها الداخلية. (ميرصادقي، ١٣٩٤: ٦١٢-٦١٣) وقد استفاد الروائي من هذا العنصر للكشف عن مكر الزيني بركات، إذ في إحدى الحوارات التي جرت بينه وبين نائبه زكريا، يخاطب الأخيرَ قائلاً: «لا بد أن تحتلّ مكانة في قلوبهم أكبر، غداً اركب حصانك، دع رجلاً من رجالك يرتدي ملابس فلاح، وآخر من رجالك في ملابس مملوك، ليضرب الثاني الأول ضرباً فظيعاً، وطبعاً يتصادف عبور موكبك، هنا ترجّل أنت أنصف الفلاح واقبض على المملوك» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٩٤). إن هذا الحوار يظهر الجانب الخفي لهذه الشخصية، ويكشف عن تبدّل مواقفها، إذ في البداية كانت تتظاهر بحسن الأخلاق، وبعد الوصول إلى السلطة تستخدم التصرفات الحسنة كخديعة تضمن لها البقاء في وظيفة الحسبة، والأسوأ من ذلك تعليمها هذا المنهج لنائبها كي تتزايد ثقة الناس به، كونها الشخصية الديناميكية[٢] التي قيل في تعريفها أنها يطرأ عليها التبدل على الدوام، وتتغير أفكارها وسماتها الفردية. (ميرصادقي، ١٣٩٤: ١٣٤)

إن الملفت للنظر في الرواية هو أن الراوي لم يقدّم معلومات واضحة بشأن المظهر الخارجي لشخصيات الرواية بصفة عامة، ولا تستثنى شخصية الزيني بركات عن هذا الأمر، فبعدما كانت «تعامَل الشخصية في الرواية التقليدية على أساس أنها كائن حي له وجود فيزيقي؛ فتوصف ملامحها، وقامتها، وصوتها، وملابسها، وسحنتها، وسنّها» (مرتاض، ١٩٩٨: ٧٦) نجد أن الراوي خلافاً لمن يرسمون ظاهر شخصياتهم بأدق التفاصيل، حجب عن هذه الشخصية الوصف الظاهري المحدد وأوكل هذا الأمر إلى الشخصيات الأخرى التي تراها في أوضاع غامضة ومفارقة. على سبيل المثال حين يراها الرحالة البندقي لا يتوقّف إلا عند أشياء خادعة، تزيد صورتها غموضاً «لم أر مثل بريق عينيه. لمعانهما، خلال الحديث تضيقان، حدقتي قط في سواد ليلي، عيناه خلقتا لتنفذا في ضباب البلاد الشمالية، في ظلامها... في ملامحه ذكاء براق، إغماضة عينيه فيها رقة وطيبة تدني الروح منه، في نفس الوقت تبعث الرهبة»

1. Dialogue
2. Dynamic Character

(الغيطاني، ١٩٩٤: ١٠). وفي موضع آخر يخبرنا الراوي من خلال «الخطاب غير المباشر الحر[1]» عن حيرة سعيد الجهيني، وعدم تمكّنه من رسم وجه الزيني بركات في الذهن «أي حيرة انتابه. لا يذكر طول القامة. يذكره ممتلئاً ونحيلاً. معتدلاً وذا حدبة. لا تثبت صورته في الذهن» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٨٤). ويحدث الأمر نفسه في المشهد الختامي حين يراها الرحالة البندقي: «حاذاني الركب ورأيت الزيني يضع لثاماً حول وجهه؛ لا أذكر ملامحه فلم ألتق به إلا مرة واحدة» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٢٨٣). إن هذه الأوصاف لا تكفي لرسم صورة واضحة عن الزيني بركات، بل تقدّم معلومات ضئيلة (تشبيه عيونه بعيون القط في البريق)، ومتضادّة (الرقة- الرهبة)، (الممتلئ- النحيل)، (المعتدل- ذو حدبة)، وغامضة (عدم ثبوت صورته في الذهن)، وهذا الأمر أوقع شخصيات الرواية وأيضاً القارئ في حيرة حول حقيقته.

تكشف خيوط الرواية عن شخصية رئيسية أخرى تأتي في الموقع الثاني من حيث الأهمية بعد الزيني بركات وهو «زكريا بن راضي». إنها شخصية خيالية شغلت مساحة واسعة في بناء أحداث الرواية؛ بسبب معرفتها الشاملة لما يجري في البلاد. لم يقدّم الراوي أي أوصاف وملامح خارجية عن هذه الشخصية، واكتفى برسم ملامحها الداخلية عبر الخطاب غير المباشر الحر الذي تبدو من خلالها شخصية ظالمة، إذ ينقل الراوي عنها أفكارها منذ أول ظهورها في الرواية: «سيجيء يوم يصبح لكل إنسان قسم خاص به، يلخصه منذ آهة الميلاد حتى رعشة الموت» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٣٧). يقدّم الراوي وفق هذه الصيغة مشاعرها الذاتية، ويحدّد أهم الملامح الداخلية التي تتّصف بها؛ إنها شخصية طاغية وتنحصر وظيفتها في رصد معارضي السلطة المملوكية والقبض عليهم وتعذيبهم.

وفي موضع آخر يقف الراوي على الأفكار التي لم ينطق بها زكريا، وذلك إثر إعلان الزيني بركات عن إجراءاته للناس عبر النداءات من دون التنسيق مع جهاز الأمن: «كيف يظهر مناد لا يعرفه زكريا؟؟ كيف لا يراجع نص ما يقوله؟؟ ثم إن الزيني بركات لم يحتسب بعد، كيف يعطي نفسه الحق في مخاطبة الناس بلا رقيب بلا وسيط» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٦٠). إن هذا المقطع السردي المصوغ بضمير الغائب الذي تولّى الراوي سرده، ينقل ما يدور في أحلام زكريا من صراعات وأفكار، ويبين أن العلاقة التي تجمع زكريا والزيني بركات، هي علاقة عداء وتنازع حول أمور تتعلق بمدى نفوذهما في السلطة المملوكية. يحرص زكريا على

1. Free Indirect Discourse

الاستئثار بجهاز أمن السلطة، ويبدي استغرابه المشوب بعدم الارتياح عن أفعال الزيني، كونه منافساً له في خط موازٍ.

يرى الدارسون أن تقديم الشخصية الروائية من خلال الفعل الذي يسنده السارد إليها يعد جزءاً محورياً في العمل المسرحي والروائي؛ لأن القارئ يتعرّف من خلاله إلى الشخصية وملامحها الجوانية. (ميرصادقي، ١٣٩٤: ١٢٨) وقد أسند السارد وظيفة التعذيب لزكريا ويظهر الأمر جلياً في المقطع التالي: «من شهور أمسكوا في خان الخليلي تاجراً رومياً قيل أنه يكاتب ابن عثمان بأخبار الدولة... راقب عقابه بنفسه... أمسك زكريا بسيخ رفيع طويل كالإبرة محمي ببطء، على مهل راح يدفعه في بطن الرومي» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٨٨). إن مشهد تعذيب هذا الجاسوس الرومي الذي كان يعمل لحساب العثمانيين على يد زكريا يشكّل مرجعاً مهماً لفهم فاعلية هذه الشخصية الروائية، ويوضح بشاعة أنواع العقاب التي توقعها هذه الشخصية بضحاياها، بحيث يجعل القارئ ينظر إليها بعين الكراهية.

لا يتعاطف الكاتب مع أحد إلا «سعيد الجهيني» الشاب الأزهري الذي تميز بيقظته ومشاعره الوطنية الصادقة. وقد حاول الراوي العليم من خلال حواراته المباشرة أو عبر الخطاب غير المباشر الحر أن يبين الهواجس التي تساور هذه الشخصية. إنه كان متحمّساً للزيني بركات في مطلع تولّيه منصب الحسبة ولكن شكوكه ازدادت في نيات المحتسب الجديد، وذلك إثر إبقاء الزيني بركات، زكريا نائباً لنفسه على الرغم من علمه بممارساته القمعية، وأيضاً تجاهله وعدم معالجته الشكوى المرفوع إليه إزاء احتكار الفول من قبل شخص باسم برهان الدين. وقد قدّم الراوي هذه الهواجس من خلال حوار جمع بين سعيد وأبي السعود: «... طلعت إلى الزيني مرة ثانية قال مثل هذه الأمور تستغرق وقتاً... ما الذي يقصده الزيني؟ حتى الآن لم يهز إصبعاً في وجه برهان الدين» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٢٥). بما أن من وظائف الحوار الدلالة على العلاقات بين الشخصيات، (مجموعة من المؤلفين، ٢٠١٠: ٢٧٠) كشف الراوي في هذا السياق عن العلاقة التي تجمع سعيداً وأبا السعود وهي علاقة توسّمت بالوفاق والوئام. إن أبا السعود يمثّل أباً روحياً لسعيد الذي لا يجد أحداً غيره كي يبوح له برؤيته إزاء الوقائع المخيبة لآماله.

وفي مشهد حواري آخر يخاطب سعيد الجهيني أبا السعود قائلاً: «أود لو تقدمت الخلق أجمعين وانتزعنا كل ظلم وفساد. ليس في الديار المصرية وحدها، إنما في الدنيا كلها، لكن

أعمارنا ستضيع وتمضي ولن نقدر على هذا. تصور يا مولانا، إنني أخاف، أخاف... ماذا يفعلون بي، ربما قطعوا دراستي بالأزهر يمنعون راتبي ورزقي، يسدّون أبواب الوظائف في وجهي، فليفعلوا... لكنني أخشى الحرمان والسجن» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٢٥). تكمن أهمية هذا الحوار في إجلاء الملامح الداخلية والأخلاقية لهذه الشخصية ويشكّل مرجعاً مهماً لفهم وظيفتها؛ إذ يصف سعيد من جهة تطلّعه إلى انتزاع الظلم من العالم، ويأسه من تحقيق هذا الطموح، ومن جهة أخرى يعلن مدى تخوّفه من مصيره المنتهي إلى السجن وعدم قدرته على مواجهة واقعه الأليم.

إن موقف هذه الشخصية يمثّل موقف «البطل الإشكالي[1]» الذي قيل في تعريفه بأنه «شخصية تبحث عن القيم الأصيلة في واقع اجتماعي مضطرب من حيث السلوك والقيم، وهو يتصف بقدر من الوعي الفكري العميق، لكنه عاجز عن إصلاح مجتمعه، وعن القدرة على التعامل معه» (وادي، ٢٠٠٣: ٢٠). وقد حرص الراوي على إبراز الهموم الداخلية لهذه الشخصية من خلال أوجاعها النفسية التي يبلغنا بها حينما «يسمع بشنق عبد، قطع يد سارق، إشهار إمرأة ضبطت تسرق رغيفاً... يضطرب قلبه كفرخ صغير ابتل ريشه، لماذا يحدث هذا كله، لماذا؟؟» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٢٥). وقد تعمّد الراوي اختيار لحظات تألّمها لإلقاء الضوء على مشاعرها الداخلية وتسجيل لحظات تفاؤلها إلى جانب فترات تشاؤمها، «لكن صبراً. مهلاً. بعد سنوات ستجيء الأيام السعيدة. لن يستقر الأمر على حاله. أول العمر يغمض عينيه فيرى أياماً مقبلة. وربيعاً فتياً يخرج الخلق من عبث المماليك...» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٢٠٩).

إن تركيز الراوي الواسع على نقل المشاعر الذاتية لهذه الشخصية أدى إلى إقصاء وصف مظهرها الخارجي، وبالكاد يستطيع القارئ أن يجد أي أوصاف خارجية لها تتعلق بطول القامة، وجهها وما أشبه ذلك. والمقطع التالي هو المقطع الوحيد الذي يقدّم الراوي فيه معلومات شحيحة عن أوصافها الخارجية بعد رصد بعض جوانبها الأخلاقية، إذ «يعرفه الطلبة المجاورون، أهالي الربوع والحارات في الباطنية طيباً، رقيقاً، متديناً، يسرع إلى نجدة من تضيق به الأحوال، يسعى لتخليص امرأة من يدي مملوك يبغي اختطافها، يزعق منادياً الطلبة، الأزهريين، مهيجاً الرجال، يلتفون حول المملوك... لكن الله خلقه ضئيل الحجم، كثير الأمراض، إذ يرقد فوق حشيته القديمة بالرواق» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٧٦). يبدو أن نحول

1. Problematic hero

جسمه الناتج عن كثرة المرض أدى إلى تعميق شعوره بالضعف والوهن، ومن ثمّ حال دون استمراره في الكفاح لتحقيق أحد طموحاته وهو رفع مظالم المماليك عن الناس.

يرى حسن بحراوي أن الروائي لمّا يضع الأسماء لشخصياته يسعى إلى أن تكون متناسبة ومنسجمة كي تحقق للنص مقروئيته، وللشخصية احتماليتها ووجودها، وهناك علامة لغوية لاسم الشخصي، ومن المهم أن نبحث في الحوافز التي تتحكم في المؤلف، وهو يخلع الأسماء على شخصياته. (بحراوي، ١٩٩٠: ٢٤٧) هذا يعني أن الروائيين يوظفون أسماء شخصياتهم بغية تحقيق أهداف فنية وجمالية وتعبيرية. ومن خلال التمعّن في منظومة أسماء الشخصيات الرئيسية في الرواية يجد القارئ أن اختيارها كان متناقضاً ومفارقاً مع مدلولات خصائصها ووظائفها، مما يقوّي فكرة التضليل المتعمّد من قبل الكاتب لحثّ القارئ على متابعة الأحداث. أما بالنسبة لـ«الزيني بركات» فإن دلالة اسمه تقف على طرف نقيض مع هذه الشخصية؛ إذ بينما تعني البَرَكة: «النماء والزيادة... والسعادة» (ابن منظور، لا تا: ٢٦٥) نجد الزيني بركات شخصية انتهازية تتظاهر بحسن الأخلاق وبعد الوصول إلى السلطة تسعى للاحتفاظ بها. ويغطّي التناقض مدلول إسم «زكريا بن راضي»، إذ إن أفعال هذه الشخصية لا تبشّر بالخير، وإسم «راضي» الذي يدل على الرضاء، لم يتحقّق وجوده في هذه الشخصية. كذلك الحال بالنسبة لسعيد الذي يدل إسمه على معاني السعادة والسرور، لكن مدلوله يناقض ما يدور بداخله من التعب والمحنة إثر الظلم والحرمان الذي ذاقه.

أشكال تقديم الشخصيات الثانوية الأصلية ووظائفها

استلهم الغيطاني من التاريخ شخصية أخرى وهو السلطان «قانصوه الغوري» (٨٥٠-٩٢٢هـ)، إذ كان الحاكم التاريخي لدولة المماليك المصرية، ويعتبر السادس والأربعون من ملوك الترك بالديار المصرية، وانحصرت ولايته على السلطة بين سنتي ٩٠٦ -٩١٢هـ (ابن إياس الحنفي، ١٩٣١: ٢) و«قد قاتله السلطان سليم الأول في «مرج دابق» قرب حلب فانهزم عسكر الغوري ومات قانصوه قهراً» (البعلبكي، ١٩٩٢: ٣٤٦).

أما بالنسبة لحضور هذه الشخصية التاريخية ووظيفتها في الرواية، فهو يصدر في بعض المواقف القوانين التي تذاع عبر النداءات ويتم نقلها بواسطة الراوي. إن السلطان قانصوه لا يظهر مباشرة إلا في موقف واحد يشتكي الأمراء إليه من الزيني بركات ولكنه يخاطبهم قائلاً: «أنتم هكذا إذا ما ظهر إنسان يبغي العدل حاربتموه» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٨٨-١٨٩). وبعد أن

ازداد شكواهم خاطبهم غاضباً: «الخزائن خاوية وابن عثمان متحرّش بنا، العامة لا يهدأون، وتجار الفرنجة ما عادوا يعبرون من الإسكندرية إلى دمياط، خسرنا دخلنا وعندما يظهر إنسان يتفنّن في جلب المال، نقف ضده، ونمانعه، والله هذا كلام لا يرضي مؤمناً ولا كافراً» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٨٩). يتضح من هذا الكلام أن العداء بدأ يدبّ بين الزيني بركات والأمراء الآخرين، لكن السلطان واثق بالزيني بركات ومنحاز إليه، وأيضاً يظهر أن التوتر اشتد في بلد المماليك بسبب عداوة العثمانيين لهم من جهة وخسارة دخلهم المادي من جهة أخرى.

وقد اعتمد الكاتب على المعلومات الواردة في كتاب ابن إياس الحنفي بشأن السلطان قانصوه، ونقل مشهد موكبه الفاخر في طريق قتال العثمانيين في الشام. وقد أوكل الكاتب نقل هذا الحادث إلى الرحالة البندقي (رؤية سردية خارجية) الذي يشرح هذا الموكب قائلاً: «وحضر ابن إياس ـ رغم كبر سنه ـ خروج السلطان ودوّن ما رآه، وسمح لي بنقل ما كتب، يقول صاحبي، ابن إياس "أقبل السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري، وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة، وكان السلطان راكباً على فرس أشقر عال، بسرج ذهب وكنبوش وهو لابس عباءة بعلبكية بيضاء مطرزة بالذهب على حرير أسود عريض قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب بنادقة، وكان ذلك اليوم في غاية الأبهة والعظمة، فإنه كان حسن الهيئة، تملأ منه العيون، مبجلاً في المواكب، ثم أقبل السنجق السلطاني، وخلفه مقدم المماليك سنبل العثمانلي"...» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٢١٩-٢٢٠).

لا يقدّم الراوي معلومات محددة بشأن السمات الأخلاقية لهذه الشخصية الروائية وإن فاعليتها ووظيفتها الرئيسية متمركزة في الواقعة الختامية المتعلقة بقتالها مع العثمانيين الذي انتهى بهزيمة المماليك وقتل السلطان. ويطلع الراوي القارئ على ملخّص وقائع هذا القتال بواسطة تقرير مرفوع إلى زكريا، إذ نقرأ فيه: «إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب. فكسر الميسرة. وأشيع بين الناس أن خاير بك نائب حلب كان موالساً على السلطان الذي ظل واقفاً تحت الصنجق في نفير قليل من المماليك صار يصيح في العسكر، يا أغوات هذا وقت المروءة قاتلوا وعلى رضاكم. فلم يسمع له أحد قولاً وصاروا ينسحبون من حوله شيئاً بعد شيء... ولما تحقق السلطان من الهزيمة... طلب ماء فأتوه في طاسة ذهب شربه ومشى خطوتين وانقلب من على فرسه إلى الأرض» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٢٤٨-٢٤٩). يكشف هذا التقرير عن وجود أشخاص خونة كخاير بك الذي ترك ساحة القتال، فتراجع الجنود عن القتال، وتخلّوا عن نصرة السلطان، ما أدى إلى هزيمة المماليك من الجيش العثماني.

وقد رسم الكاتب شخصية فرعية أخرى باسم «الشيخ أبو السعود» التي تكون ذات الاتجاه الصوفي. تحظى هذه الشخصية بمكانة اجتماعية خاصة عند الناس، نظراً لما تتّصف به من الورع وإجهاد النفس في طلب العلم. وقد قدّمها الراوي العليم قائلاً: «الشيخ أبو السعود الصالح، الطيب المنجب، النجيب، العارف بالأصول والفروع، دار ولف الدنيا، أقام زمناً بالحجاز واليمن، عرف لغة الهند، ولهجة الأحباش، عالج أمور المسلمين في فارس، وناقش علماء الأناضول» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٢٥). ويقول عنها في موضع آخر «تمرح روحه في كون آخر، يناجي الأولياء، يذكر بالأسى ما جرى من أحوال في كربلاء، يترحم على آل البيت عليهم السلام الذين لا يتسرب إليهم البِلى والفناء» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٤٥). لكن الراوي لم يحدّد عمرها ورمز إلى كبريائها بالإشارة إلى أن «في التجاعيد آثار عشرات السنين، ربما تجاوز المائة، الصوت والقامة يحويان صلابة جذوع النخيل» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٤٤).

تكمن وظيفة أبي السعود الأساسية في إقناعه الزيني بركات لقبول وظيفة الحسبة إثر امتناع الأخير عن قبول هذا المنصب: «لن يقنعه بولاية الحسبة إلا أنت. أنت يا مولانا والبركة فيك» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٤٨). وتتجسّد وظيفته أيضاً في حركتين أخريين تُرسمان في نهاية أحداث الرواية؛ إذ يطلعنا الراوي عبر تقرير مرفوع إلى زكريا بن راضي على استدعائه الزيني بركات، ولمّا حضر عنده صرخ في وجهه «لماذا تظلم المسلمين؟ لماذا تنهب أموالهم، وتقول كلاماً تنسبه إلي. أبدى الزيني دهشة، حاول الانصراف، لكن الشيخ قام، نادى أحد مريديه (درويش اسمه فرج)، تجمع حوله الدراويش أحاطوا به، أمر الشيخ، فضُرب رأس الزيني بالنعال» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٢٤٥) وذلك إثر علم أبي السعود عمّا ألحقه الزيني بركات من مظالم بالناس. أما الحركة الثانية فتمثّلت في استنفاره الشعب وحثّهم على الجهاد ضد العثمانيين، ما أثار حفيظة رجال السلطة العثمانية، فصُدر نداء بهذا الخصوص، يطلَب فيه من الناس إعطاء المعلومات عن مكان وجوده. (الغيطاني، ١٩٩٤: ٢٦٨)

قد رسم الراوي العليم شخصية أخرى باسم «عمرو بن العدوى» الذي كان طالباً أزهرياً اضطرته ظروفه المادية الصعبة إلى التواطؤ مع المماليك والتجسّس على أفعال زميله سعيد الجهيني الذي كان مطّلعاً على هذا الأمر وقدّمه من خلال عوالمه الداخلية: «سعيد يرى عمرو بن العدوى، نحلة حائمة ضلت طريقها إلى حجرها، من حلقة إلى أخرى ينتقل، يصغي، يشارك في الأحاديث، يغضب وقت الغضب، يفرح لحظات الفرح، يلقي رأياً يبدو عارضاً، قيل

صدفة، لكنه يدفع الحديث في اتجاه تشتهيه سفن زكريا» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٢٧). غير أن هناك دافعاً آخر تمثّل في الضغوط التي يمارسها عليه جهاز تجسّس السلطة وأشعرته بأنه تحت الرقابة، فعليه التواطؤ معه: «عمرو يعلم أنه ليس بمفرده، هناك من يرقب الخلق معه، يرقبه هو أيضاً، يرفع عنه التقارير إلى مقدم بصاصي القاهرة» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٥١).

أشكال تقديم الشخصيات الثانوية الفرعية ووظائفها

قد استوحى الغيطاني من كتاب «بدائع الزهور» شخصية هامشية باسم «علي بن أبي الجود» الذي قال ابن إياس عنه بأن السلطان قانصوه جعله ناظر الأوقاف «فتزايدت عظمة علي بن أبي الجود ولبس الطوق وركب الخيول بالأخفاف والمهاميز وصار يعد من جملة رؤساء مصر فاجتمع فيه وكالة بيت المال ونظر الأوقاف وبرددارية السلطان... وتصرف في أمر المملكة بما يختار وقمع سائر المباشرين» (ابن إياس الحنفي، ١٩٣١: ٤٤). ولكن هذا الشخص اعتُقل نتيجة تبدّل رأي السلطان نحوه، إذ «عرض السلطان على علي بن أبي الجود بالحوض وضربه بالمقارع عشرين شيباً حتى خرق جنبه وأشرف على الموت فلم يرث له أحد من الناس بموجب ما كان يفعله من أنواع المظالم بالناس» (ابن إياس الحنفي، ١٩٣١: ٥١).

يظهر علي بن أبي الجود كشخصية روائية في بداية الرواية ويختفي بسرعة، بعد اعتقاله ومن ثم تعذيبه وقتله جرّاء اتهامه بنهب أموال الناس ومظالم أخرى. ويقدّم الراوي صورة عابرة عن هذه الشخصية عبر وعي سعيد الجهيني، إذ «يراه الآن بعيني عقله، ها هو يمتطي حصاناً عليه كنبوش مذهب، يمر أمام بيوت المشايخ أو الأمراء، تتقدمه طبول قوية تفوق في ضجتها طبلخاناه تدق أمام أي أمير. ها هو يمشي في الطرقات مترجلاً، يحفّه حرسه الأشداء، عندما أقنع السلطان بفرض ضريبة على الملح، ألحق الضرر بالمسلمين» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٢٢). من خلال هذه الصورة يتمكّن القارئ من درك وظيفة هذه الشخصية وأبرز السمات التي كانت تتميز بها قبل اعتقالها، وهي عيشها في الترف، ومفاخرتها الأمراء في القوة، وأيضاً إلحاقها الضرر بالناس بسبب فرض الضرائب عليهم.

ومن الملاحظ أن الروائي استفاد من المعلومات الواردة في كتاب «بدائع الزهور» في تقديم الوقائع المتعلقة بمعاقبتها على يد الزيني بركات بعد اعتقالها؛ إذ نقرأ في حولية شوال ٩٠٨هـ: «إن السلطان سلّم علي بن أبي الجود إلى بركات بن موسى ليعاقبه ويستخلص منه الأموال فنزلوا بابن أبي الجود من القلعة وهو في الحديد وتوجّهوا به إلى دار بركات بن

موسى» (ابن إياس الحنفي، ١٩٣١: ٥٠). ونجد في الرواية عبر تقرير رئيس جواسيس القاهرة وقائع مماثلة، إذ يخاطب الزيني بركات، علي بن أبي الجود في السجن قائلاً: «أنا أعرف حيازتك لمال طائل، أنت داهية في طريقة إخفائه، أخبرني عنه وكما تعلم أنا لن أضع منه درهماً في جيبي، كله سيذهب إلى خزانة السلطنة... أين الأموال؟» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٣٥).

وقد نقل ابن إياس أحداث إعدام هذه الشخصية في حولية محرم سنة ٩٠٩هـ، إذ «رسم السلطان بشنق علي بن أبي الجود فشنق على باب زويلة واستمر معلقاً ثلاثة أيام لم يدفن» (ابن إياس الحنفي، ١٩٣١: ٥٥). لكن الرواية تخالف نص التاريخ، إذ صُدر نداء، أُعلن فيه عن إعدام هذه الشخصية ضرباً بالأكفّ في موكب عام. (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٣٨)

توجد في الرواية شخصية هامشية أخرى، باسم «الشيخ ريحان البيروني» التي يتعرّف القارئ عليها عبر الرسالة الطويلة التي أرسلها إلى الزيني بركات نائبه. وبما أن الرسالة «تلقي الضوء على ما يتركه مجرى الحكي مخفياً أو غير واضح المعالم» (أحمد، ٢٠٠٥: ٦٢) فإن المعلومات المتعلّقة بهذه الشخصية تشير إلى افتقارها إلى الالتزام بالقيم، إذ عمل «كاتباً صغيراً بديوان سرّ قاضي القضاة، وفي هذه المدة قام بصياغة الحجج والفتاوى التي تصدر عن قاضي القضاة، وأتقن عمله» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٧١). إنها بهذه المواصفات تكون في مقابل شخصية الشيخ أبي السعود، إذ لديها آمال دنيوية جعلتها شديدة الرغبة في مرافقة الأمراء؛ لهذا بعد ترشيحها من جانب القاضي عبدالبر لتدوين المكاتبات «قام الشيخ ريحان وقبّل القاضي عبد البر... أخيراً سيرى الأمراء والضيوف، يحرر المكاتبات، يطلع على أسرار الدولة» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٧٦).

وقد أتى الراوي بنماذج من الأقوال لبعض الأمراء والخطباء الذين يمثّلون أشخاصاً هامشيين في الرواية، وذلك في المشهد السردي المرتبط بالمناقشات التي جرت بينهم بسبب تعليق الزيني بركات مجموعة من الفوانيس في القاهرة لإضاءة الشوارع. على سبيل المثال ممّا قاله بعض الخطباء: «يا أهل مصر، توجّهوا إلى بيت الزيني بركات بن موسى أفراداً وجماعات، زرافات ووحدانا، قوموا إليه، إلى بيته طالبوه بمنع الفوانيس التي تهتك السر، وتشجع النساء على الخروج بعد العشاء...» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١١٥). وأكد قاضي قضاة مصر قائلاً: «الفوانيس تذهب بالبركة بين الناس» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١١٥). وممّا قاله أحد الأمراء: «تسبب تعليق الفوانيس بجميع الحارات في تشجيع حريم العامة على النزول بعد العشاء

والتجول في الطرقات، والسهر أمام الربوع والأسواق وهذا مخالف للحشمة، وخادش للحياء» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١١٦). إن هذه الشخصيات لا وظيفة ودور أساسي لها في الواقع، ولكن وجودها ضروري لإتمام هذا المشهد السردي، وتقديم وجهات نظرها من جهة يظهر نشوب الخلاف بين بعض الأمراء المملوكيين والزيني بركات تجاه موضوع هامشي (تعليق الفوانيس) لا يعود بالخير للشعب، ومن جهة أخرى يشير إلى سعيهم لمصالحهم الشخصية واستغلالهم الأعراف والمعتقدات لإثبات موقفهم.

أما بالنسبة لحضور المرأة في الرواية فيلاحظ أن الأسماء النسوية قليلة جداً قياساً إلى أسماء الذكور؛ لأن دور المرأة ألغي إلغاء كاملاً في هذه الرواية ولا وظيفة ملفتة للنظر لها ولا ملامح خارجية وداخلية. هناك شخصية «سماح» التي ليس لها وجود حقيقي في الرواية، ويدور أحياناً طيفها في ذاكرة سعيد الجهيني، فقد كان «لا يراها جسداً... هي إلى الروح أقرب، طيف خيال، وشوشة لا تمس، سوسنة لا تقطف، عينا ملاح فيهما حيرة» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٧٥).

وتظهر في موضعين شخصيتان نسائيتان ولكنهما تختفيان عن ساحة الرواية بشكل مفاجئ. إحداهما شخصية «المرأة السمينة» التي يقدّمها الراوي العليم عبر رسالة مرفوعة إلى زكريا، إذ صرخت في وجه الزيني إثر خروج موكبه من الأزهر «حتى حظيت بانتباه الخلق، طلع عليها طلوع لا يهتف إلا بكلمة واحدة. يا لئيم يا بن اللئيمة. وعندما تنبّه العامة هجموا عليها، ذابت كفص الملح» (الغيطاني، ١٩٩٤: ٦٣-٦٤). أما الشخصية الأخرى فهي «أم عمرو» والد عمرو بن العدوى التي تكون شخصية وهمية ليس لها وجود حقيقي في النص، ويقدّمها الراوي من خلال ذكريات عمرو بأنها اختفت في طريق قدومها إلى القاهرة لرؤية ولدها الوحيد، «داروا عليها في غيطان البطاطا، وملقة البطيخ، لم يعثروا لها على أثر، ولم يذكرها أحد بعد وقت قليل... تعجب شيخ زاوية العميان قال "ظننت أنها جاءت إليك"، غامت عينا عمرو، رأى أمه فوق طريق مترب مهجور يصل بين قريتين، تقطعه ترع، حفر، غابات النخيل، ينزل عليها الليل لا تلقي ما تدفئ به معدتها، تسأل القادمين والذاهبين عن الطريق إلى مصر... في القلب حنين إلى عجوز لا يعرف مكانها، إلى أي أرض تمضي، بأي أرض تموت» (الغيطاني، ١٩٩٤: ١٦٠-١٦١). يلاحظ أن الراوي اكتفي بتسمية الشخصيات النسائية بالصفة والكنية في دلالة على سيطرة الذكورية على هذا المجتمع وضعف دور المرأة وفاعليتها فيه.

النتائج

- اختار الغيطاني معظم أسماء الرواية من التراث وجمع بين شخصيات متخيلة، وشخصيات تاريخية لها وجود حقيقي في كتاب «بدائع الزهور في عجائب الدهور» لابن إياس، لكن الكاتب منحها أبعاداً تخييلية وجعلها نامية.
- اعتمد الكاتب في رسم شخصيات الرواية على الراوي العليم، وقدّمها بأشكال متنوعة أهمها: الخطاب غير المباشر الحر والحوار والراوي الخارجي، إلى جانب الاستفادة من كتاب «بدائع الزهور في عجائب الدهور» لابن إياس.
- لا تتساوى الشخصيات من حيث الوظائف والأدوار، ويتمكّن القارئ من خلال تلقّي وظائفها أن يفهم محتوى النص الروائي.
- إن انتقاء أسماء الشخصيات الرئيسية يكون متناقضاً ومفارقاً مع مدلولات سماتها الداخلية.
- أطلّ الراوي على العالم الداخلي للشخصيات لتحليل نفسيتها، ولم يقدّم أوصافاً مستفيضة وتفاصيل دقيقة بشأن ملامحها الخارجية.

المصادر والمراجع

١. ابن منظور (دون تا). لسان العرب. القاهرة: دار المعارف.

٢. أحمد، مرشد (٢٠٠٥م). البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٣. بحراوي، حسن (١٩٩٠م). بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- الشخصية). بيروت: المركز الثقافي العربي.

٤. برنس، جيرالد (٢٠٠٣م). المصطلح السردي (معجم مصطلحات). ترجمة عابد خزندار، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

٥. البعلبكي، منير (١٩٩٢م). معجم أعلام المورد. بيروت: دار العلم للملايين.

٦. الحنفي، محمد بن أحمد (١٩٣١م). بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق باول كالة ومحمد مصطفى ومورتس سوبرنهايم، مج ٤ (من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢١هـ)، استانبول: مطبعة الدولة.

٧. بوعزة، محمد (٢٠١٠م). تحليل النص السردي. الرباط: دار الأمان.

٨. الجابري، متقدم (٢٠١١م). «جماليات التعالق النصي في رواية الزيني بركات لجمال الغيطاني». مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر، الجزائر.

٩. جنيت، جيرار (١٩٩٧م). خطاب الحكاية (بحث في المنهج). ترجمة محمد معتصم وعبدالجليل الأزدي وعمر حلي. ط ٢، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

١٠. خليل، إبراهيم (٢٠١٠م). بنية النص الروائي. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

١١. درّاج، فيصل (٢٠٠٢م). نظرية الرواية والرواية العربية. ط ٢، بيروت: المركز الثقافي العربي.

١٢. الصمادي، مأمون عبدالقادر (١٩٩٢م). جمال الغيطاني والتراث. القاهرة: مكتبة مدبولي.

١٣. طالب زاده شوشتري، عباس؛ زيبائي، منيرة (١٤٣٤ هـ). «دراسة في عناصر روايات عبدالسلام العجيلي». مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، العدد ١٥.

١٤. الغيطاني، جمال (١٩٩٤م). الزيني بركات. ط ٢، القاهرة: دار الشروق.

١٥. فروخ، عمر (١٩٨٩م). تاريخ الأدب العربي. ج ٣، ط ٥، بيروت: دار العلم للملايين.

١٦. لحمداني، حميد (١٩٩١م). بنية النص السردي. بيروت: المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

١٧. مجموعة من المؤلفين (٢٠١٠م). معجم السرديات. تونس: دار محمد علي للنشر.

١٨. مبروك عبد الرحمن، مراد (١٩٩١م). العناصر التراثية في الرواية العربية في مصر- دراسة نقدية (١٩١٤- ١٩٨٦). القاهرة: دار المعارف.
١٩. مرتاض، عبدالملك (١٩٩٨م). في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد). مجلة عالم المعرفة، العدد ٢٤٠.
٢٠. ميرصادقي، جمال (١٣٩٤ش). عناصر داستان. ط ٩، طهران: منشورات سخن.
٢١. ندوة مشكلة الإبداع عند جيل الستينيات والسبعينيات (١٩٨٢م). مجلة فصول، العدد ٢.
٢٢. وادي، طه (٢٠٠٣م). الرواية السياسية. الجيزة: الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان.
٢٣. يقطين، سعيد (٢٠٠٥م). تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير). ط ٤، بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.